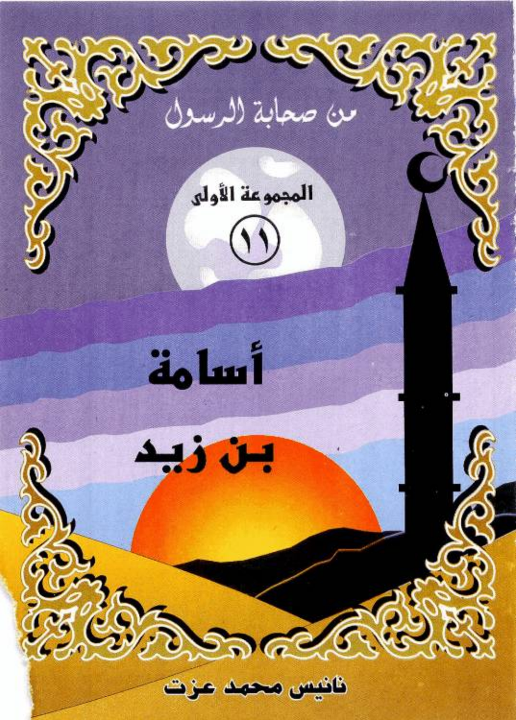

من صحابة الرسول
المجموعة الأولى
١١
أسامة بن زيد
نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ١١

أسامة بن زيد

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

أسامة بن زيد

قامَ أفرادُ الأُسرةِ برحلةٍ قَصيرَةٍ إلى حدائِـقِ حُلـوان ، وتمتّعوا بالجوِّ الصَّحو ، والشَّمسِ الدّافِئـة ، والهَـواءِ العَليل ، واكتَملتْ سعادَتُهم باجْتماعِ شَـملِهم ، فنـادِرًا مـا يَجتَمعون ، إمّا لكَثرةِ مَشاغِلهم ، أو للعَمل ، أو لإسْتِذكارِ الدُّروس .

وفي أثناءِ انهماكِهم في اللّعب ، أذّنَ المُؤذّنُ لِصلاةِ الظُّهر ، فقالَ جَدُّهم : قد وجَبَت الصَّلاة ، فليَتوضَّأْ كلٌّ مِنّا لنُصلّيَ الظُّهرَ جَماعَة ، وبعدَ أداءِ الصَّلاة ، تَستأنِفونَ لَعِبَكُم ولَهوَكُم .

قالَ عادِل : أرجو أن نَنتَظِرَ يا جَدّي خَمسَ دَقائقَ فَقط ، فالمُباراةُ أوشَكتْ أن تَنتهي .

قالَ عمُّهم : لا انْتظارَ فالصَّلاةُ قبلَ أيِّ شَيءٍ آخَر ، وبعدَ الصَّلاةِ ! افعَلوا ما شِئتُم . إنَّ أفضلَ وَقتٍ للصَّلاةِ

فى أوَّلِ وَقتِها ، أى بعدَ الأَذانِ مُباشَرَة .

وبعدَ أن توضَّأوا جَميعًا قالَ جَدُّهم . فلتؤمَّنا فى الصَّلاةِ أنتَ يا سامح . فاسْتعجَبوا كلُّهم ، فسامحٌ غُلامٌ لم يتعَدَّ العاشِرَةَ من عُمرِه ، فكيفَ يَؤُمُّ من هُم أكبَرُ منه سِنًّا ؟

قالَ جَدُّهم : إنَّ سامِحًا أكثَرُنا حِفظًا لِلقُرآن ، فقد أتمَّ بفَضْلِ اللّهِ حِفظَ المُصحَفِ كُلّه .

وأذّنَ عَمُّهم لإقامَةِ الصَّلاة . وبعدَ أن انتهَوْا من أداءِ الصَّلاةِ قالَ عَمُّهم : ذكَّرنى مَوقِفُ سامحٍ هذا ، بمَوقِفٍ مُشابهٍ له ، حدَثَ فى أيّامِ الإسْلامِ الأولَى لأحَدِ فِتيانِ المُسلِمين ، هو أُسامَةُ بنُ زَيْد . فقد أمَّرَه الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، على جَيشِ المُسلِمينَ المُتَّجِهِ إلى حَربِ الرّوم ، وكانَ فَتًى تَحتَ إمْرَتِه كِبارُ الصَّحابَةِ من المُهاجِرينَ والأنْصار .

تعجَّبَ مُحمَّدٌ وسَأَل : أحَدثَ هذا حَقًّا يا عَمّى ؟

قالَ عَمُّه : وأعجَبُ من ذَلك هُو البَلاءُ العَظيمُ الّذِى أبْلاهُ جَيشُ المُسلِمين ، والانْتِصاراتُ الباهِرَةُ الّتى حقّقها.

قالَ سامِح : هَلاّ قَصَصتَ عَلينا قِصَّةَ هَذِه الحَربِ يا عَمّى !

قالَ جَدُّهم مُداعِبا : والمُباراةُ يا سامِح ؟

هتفَ الأولادُ جَميعا : القِصَّةُ أوَّلاً يا جَدّى ، نُريدُ أن نَسمَعَ قِصَّةَ أُسامةِ بن زيد .

قالَ عمُّهُم : كانَ أُسامَةُ بنُ زَيدٍ أحَدَ أبناءِ الإسْلام الّذينَ وُلِدوا فى عَهدِه ، ولم يُدرِكوا شَيئًا من ظَلامِ الجاهِليَّة ، وكانَ أبوهُ هو زَيدُ بنُ حارِثَة ، مَوْلَى الرَّسولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، أى عَبدُهُ المُعتَقُ الّذى أهدَتْه إليه زَوجُهُ السَّيدَةُ خَديجَة ، وكانتْ أُمُّه هى أمُّ أيمَن ، مَولاهُ

رَسولِ اللّهِ وحاضِنَتُه بعدَ وَفاةِ أُمِّهِ السَّيِّدةِ آمِنَة ، فهو ابن مُسلِمَيْنِ كَرِيمَيْنِ من أوائِلِ المُسلِمينَ سَبقًا إلى الإسْلام ، ومن أكثَرِهم وَلاءً للرَّسولِ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، وأقرَبِهِم إليه . وقد نَشأَ أُسامَةُ نشأَةً دينيَّة ، فحَفِظَ أجزاءً من القُرآنِ الكريم ، وأدرك كل ما يَحُضُّ على تَوحيدِ اللّه ، وعِبادَةِ اللّهِ حقَّ عِبادَتِه .

وقد أحَبَّ أُسامَةُ الجهادَ منذُ نُعومَةِ أَظفارِه ، وأرادَ الخُروجَ إليهِ يومَ بَدر ، ولكنَّ والِدَيهِ منعاهُ مِنهُ لصِغَرِ سِنِّه . ولكنَّهما لم يَستَطيعا أن يَرُدّاهُ عن عَزمِهِ علَى الجِهادِ يومَ أُحُد ، فقد أصَرَّ علَى الخُروجِ إليه ، وكان عُمرُه آنَذاك أحدَ عشَرَ عاما ، ولكنَّ بعضَ الصَّحابَةِ مَنعوهُ إشْفاقًا عَليهِ لِصغَرِ سِنِّه .

قالَ عادِل : أرادَ الخُروجَ إلى القِتالِ وهو فى الحادِيَةَ عَشرَةَ من عُمرِه ؟ ألم يَخشَ أهوالَ الحَرب ؟

قالَ عمُّه : كانَ هَـدفُ المُسـلِمينَ الأوائـلِ الوَحيـد ، هو نَشرُ الإسْلام . ولا تَنسَ يا عادِلُ أنَّ أسامَةَ نشـأَ فـى بَيتٍ دِعامَتُهُ الجهادُ فى سَبيلِ اللّه ، وإعلاءُ كلِمَةِ الدّين.

وعِندمـا استُشـهِدَ زَيـدُ بـن حارثَـةَ أبو أُسـامَةَ علـى حُدودِ الشّام ، وهـو يُحـارِبُ الـرّومَ فـى غَـزوةِ مُؤتَـة ، تَمنّى أُسامَةُ فى قَرارَةِ نَفسِه أن تُتاحَ له الفُرصَةُ لِيُحارِبَ الرّوم ، لِيثأر لِمقْتَلِ أَبيه ، ولشُهداءِ غَزوَةِ مُؤتَةَ جَميعا .

وكـانَ النّبـىُّ صلّـى اللّـهُ عَليـهِ وسَلّم شَـديدَ الحُـبِّ لأُسامَةَ بنِ زَيد ، وكانَ يُطلِقُ عَليه « الحِبَّ بنَ الحِـبّ » وظَهرتْ مَنزِلَته عِندَه يومَ فَتحِ مَكّـة ، فقـد دَخـلَ النّبـىُّ مكّةَ علـى ظَهـرِ دابَّتِـه ، وأُسـامَةُ يركَـبُ خَلفَـه . كمـا ظَهرت مَكانَتُهُ أوْضَحَ ما تَكونُ عِندما دخَلَ النّبىُّ صلّـى اللّهُ عَليهِ وسَلّم لِيُصلّـىَ فـى داخِـلِ الكَعبَـة ، بعـدَ فتـحِ مَكّة، ولَم يصْطَحب مَعهُ إلاّ بلالاً وأُسامَةَ .

قالَ سامِح : أَلِهذه الدَّرجَةِ كانتْ مَنزِلَته عِندَ رَسولِ اللّه صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، إذ فضَّلهُ على جَميعِ الصَّحابة ، وفيهم من هُو أكبَرُ مِنه سِنًّا ومَكانَة :

قالَ عمُّه : وقد قالَ عنه النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم : (إنَّ أُسامَةَ بنَ زَيدٍ لَمِن أحبِّ النّاسِ إلَيَّ، وإنّي لأَرجو أن يكونَ من صالِحيكُم ، فاستَوصوا بهِ خَيرا) .

وجاءَت غَزوةُ حُنَيْن ، واغتَرَّ المُسلِمونَ بكَثرَةِ عَددِهم وعُدَّتِهم حتّى إنّهم قالوا : لن نُغلبَ اليَومَ عن قِلّة . وهُنا كانَ لا بدَّ مِن دَرسٍ إلهيٍّ ليَتعلّموا ويَعلَموا أنّما النَّصرُ مِن عندِ اللّه ، فقدْ نَصرَهُم اللّهُ يَومَ بَدرٍ وهُم قِلّةٌ مُستَضعَفَة .

قالَ مُحمَّد : وماذا كانَ ردُّ فِعلِ النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ؟

قالَ عمُّه : لقد وَقفَ النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، يُنادى بأعْلَى صَوتِه : (إلى أينَ أيُّها النّاس؟ هَلُمّوا إلَيّ .. أنا رَسولُ اللّه .. أنا مُحمَّدُ ابنُ عَبدِ اللّه .. أنا النّبيُّ لا كَذِب .. أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِب) .

وتلفَّت النَّبيُّ حَولَه فوجدَ أحدَ عشَرَ مُؤمِنًا قَرَّروا ألاّ يَتَخَلَّوْا عَنه فى ذلك المَوقِف ، وكانَ أُسامَةُ بنُ زَيدٍ أحدَ هَؤلاء .

وكانتْ غَزوَةُ حُنَيْنٍ هى أوّلَ غَزوَةٍ يَخرُجُ فيها أُسامَةُ بنُ زَيدٍ مع رَسولِ اللّه صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم، وكانَ عُمرُه وقْتَذاك سِتَّةَ عشَرَ عاما . وقد شاءَت الأَقدارُ أن تكونَ امْتِحانًا قاسِيًا للمُسلِمين، ولكنَّ أُسامَةَ كانَ كُفئًا لهذا الامْتِحان ، ممّا أهَّلَهُ فيما بعدُ لنَيلِ شَرفِ نَيْلِ إمارَةِ المُسلِمينَ فى غَزوَةِ

الرّوم . وفيها جاءَت اللّحظَةُ الحاسِمَة ، الّتي طالَما تَمنّاها أُسامَةُ لِلثّأرِ لِمَقتَلِ أَبيه .

فقد قَرَّر النّبيُّ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، إرْسالَ جَيشٍ لغَزوِ الرّوم ، وعَزَمَ أُسامَةُ أن يَكونَ أوّلَ الخارجينَ في هذا الجَيْش . ولكنَّ النّبيَّ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، قد أعَدَّ له مُفاجَأَةً لم يَكُن يَتوقَّعُها ، فقد أَمَّرَه هو نَفسَهُ على ذلِكَ الجَيْش ، ولَمّا يتَعَدَّ العِشرينَ من عُمره . أمَّرَهُ على جَيشٍ يَضمُّ صَفوَةَ المُسلِمينَ من مُهاجرينَ وأَنْصار ، فيهم أبو بَكرٍ الصِّديق ، وعُمرُ بنُ الخَطّاب .

وخرجَ الجَيْشُ وعَسكَرَ في « الجَرْف » ، ولكن وَرَدَتِ الأَنباءُ بمَرَضِ النّبيِّ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، واشْتِدادِ المَرضِ عَليْه . وخَشِيَ النّبيُّ أن يَستَغِلَّ المُنافِقونَ فُرصَةَ مَرَضِه ، ويَصْرِفوا الجَيشَ عن

المُضِيِّ إلَى هَدَفِه ، فأمَرَ أهْلَه أن يصُبّوا سَبعَ قِربٍ من المَاءِ البارِدِ فَوقَ جسْمِه ، فعِندَما خفّت حَرارَتُه، خرج إلى المَسْجدِ وخَطبَ فى النّاسِ خُطبَةَ الوَداع ، قالَ فيها : (أيُّها النّاسُ أنفِذوا بَعثَ أُسامَة ، فلَعَمرى لئن قُلتُم فى إمارَتِه ، لقد قُلتُم فى إمارَةِ أبيهِ من قَبلِه ، وإنّهُ لخَليقٌ بالإمارَة ، وإن كان أبوه لَخليقًا لها) .

وماتَ النّبيُّ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، وازْدادَتِ الفِتَنُ وازْدادَ الجدالُ حَولَ جَيشِ أُسامَة ، ولكنَّ أبا بَكرٍ الصِّديقَ أبَى أن يُخالِفَ أمرَ النّبيِّ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم.

سَألَ عادِل : وهلْ بَعثَ الجَيشَ رَغْمَ القَلاقِلِ والفِتَنِ الّتى حَدثَتْ بوَفاةِ الرّسولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، ورَغمَ ازْدِيادِ أعَدادِ المُرتَدّين ؟

قالَ عَمُّه : قالَ أبو بَكرٍ لُمعارضيه : والّذى نَفسُ أبى بكرٍ بيَدِه ، لو ظَننْتُ أنَّ السّباعَ تَخطِفُنى لأُنفِذَ بَعثَ أُسامَة ، كما أمرَ رَسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، ولو لَم يَبقَ غَيرى فى القُرَى لأُنفَذْتُه.

واسْتَأذَنَ أبو بَكرٍ أُسامَةَ الأَميرَ على الجَيْش ، أن يُبقى لهُ عُمرَ بنَ الخَطّابِ ليُعاونَهُ فى عَملِهِ فى المَدينة . وهكذا خَرجَ الجَيشُ وحانَتِ الفُرصَةُ لأُسامَةَ كامِلَة ، لِلنّيلِ مِمَّن فَتَكوا بأَبيه .

وأبْلَى جَيشُ أُسامَةَ بَلاءً حَسنا ، فقَتلَ الكَثيرَ من المُشركين ، وأسَرَ الكَثيرينَ مِنهُم ، وكانَ شِعارُهُم يَومَئِذ « يا مَنْصورُ أَمِت » .

وعادَ الجَيشُ إلَى المَدينَةِ بَعد أرْبَعينَ يَومًا أو سَبعين ، مُكَلّلاً بالنّصر ، ولم يَكدْ يَفقِدُ جُندِيًّا واحِدا .

قالَ مُحمَّد : لم يَفقِد جُندِيًّا واحِدا ، أهذا مَعْقول ؟

قالَ عَمُّه : نعم ، وكانَ لِتلكَ الغَزوَةِ دَوِيٌّ هائل ، بَينَ القَبائِل ، فعَرفَ الجَميعُ أنَّ المُسلِمينَ قُوَّةٌ لا يُستَهانُ بها ، وأنّهم قُوَّةٌ لا تُقْهَر ، فقد هاجَموا الرّومَ في عقرِ دارِهم وانْتَصروا عَلَيهم .

وصَباحَ عَودَتِهِ من المَعرَكَة ، ذهَبَ أُسامَةُ بنُ زَيدٍ إلى أبي بَكرٍ الصَّديق ، وأَبْدَى اسْتِعدادَهُ لِلمُشارَكَةِ في قَمْعِ المُرتَدّينَ عنِ الإسْلام .

قالَ مُحمَّد : لا بُدَّ أنْ كانَت لأُسامَةَ مَنزِلَةٌ كَبيرَة ، عِندَ خَليفَةِ رَسولِ اللّه : قالَ عَمّه : كانَتْ له مَنزِلَةٌ كَبيرَةٌ عِندَ الجَميع . فعِندَما كان عُمَرُ بنُ الخَطّابِ في أحَدِ الأَيّامِ يُقَسِّمُ الأَنصِبَة ، ويُعطي كُلَّ فَردٍ نَصيبَهُ من بَيتِ مالِ المُسلِمين ، أعْطَى

أُسامَةَ ضِعْفَ ما أَعْطَى وَلدَه عَبدَ اللّه ، فسأَلهُ عَبدُ اللّهِ عن السَّبَبِ في ذلك ، فقال : إنَّ أُسامَةَ كانَ أحَبَّ إلى رَسولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم مِنك ، وكانَ أَبوه أحَبَّ إلى رَسولِ اللّهِ من أَبيك .

واعْتكَفَ أُسامَةُ بنُ زَيدٍ من حَياةِ الجِهادِ في المَدينَة ، وذَهبَ لِيَقضِيَ ما بَقِي من عُمرِهِ في بِلادِ الشّام . وعِندما أدرَكَتْه الشَّيخوخَة ، ودبَّ في جسمِهِ الضَّعف ، أحَسَّ بالحَنِين إلى المَدينةِ فعادَ لِزيارَتِها . وعِندَ « الجَرْف » اشْتَدَّ به الشَّوْقُ إلَيها فقرَّرَ أن يَمكُثَ بها حتّى واتَتْهُ المَنيَّةُ فَماتَ في السَّنَةِ الرَّابعَةِ والخَمسينَ من الهِجْرَة .

قال سامِح : كانَ أُسامَةُ يا عَمّي بَطَلاً بكلِّ مَعنَى الكَلِمَة ، فقد عَبرَ بالمُسلِمينَ فَترَةً حَرِجَة ، بعدَ وفاةِ الرَّسولِ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، وعَرفَ

الجَميعُ أنَّ المُسلِمينَ قُوَّةٌ لا يُستهانُ بها .

قالَ جَدُّه : أَأَعْجَبَتْكُم قِصَّةُ أُسامَةُ بنُ زَيدٍ يا أوْلادى ؟

قالوا بصَوتٍ واحِد : نَعَم ، إنَّها قِصَّةٌ شائِقَة ، مَليئَةٌ بالبُطولات .

وسأَلَهُم جَدُّهم : وماذا تَعلَّمتُم مِنها ؟

قالَ سامِح : تَعلَّمتُ مِنها أنَّ قيمَةَ الإنْسان الحَقيقِيَّة ، ليست بِطول عُمره ، وإنَّما بِما يُقدِّمُهُ فيها من عَمَل .

وقالَ مُحمَّد : وتَعلَّمتُ أنا مِنْها الشَّجاعَةَ والإقْدامَ والبَذلَ فى سَبيلِ اللّه .

وقالَ عادِل : أما أنا فقدْ عَزَمتُ على حِفظِ القُرآنِ الكَريم ، ومُداوَمةِ قِراءَتِه ، لأَكونَ مِثلَ سامِح .

قالَ عَمُّه : فِكرَةٌ جَميلَة ! أتَعْلَمونَ لـو أنَّ كُـلاًّ مِنكُم واظَبَ علـى حِفـظِ ثَـلاثِ آيـاتٍ فَقـط مـنَ القُرآنِ كُلَّ يَوم ، لأَتَمَّ حِفظَ القُرآن كُلِّهِ فى وَقْتٍ قَريب ، وأنـا دائمًـا علـى اسْتِعدادٍ لِمُعاوَنَتِكم فـى حِفْظِكُم .